المحاسنى الشاعر
فى نظر.... معاصريه

بقلم الأديب الاستاذ:
حسان الكاتب

ثمة مشاعر قوية تربط الاديب بإخوانه.. ولا عجب فهو ابن البيئة التى يعيش فيها أقرانه واخوانه.. ممن درجوا فى نفس الجو.. الذى مر، أو يمر.. فهى معاناة كاملة تعين الاديب الذى يحمل رسالة الادب..

لقد توطدت صلتى بالاديب الشاعر الراحل الدكتور زكى المحاسنى من خلال رسالته التى وجهها لى على أثر اهدائه (الموسوعة الموجزة) والتى نفحتنى قوة وعزما وتصميما... حيث قال فيها: «لطالما أتوق الى ظهور معلمة بين المواطنين بسورية من صنع علمائهم وادبائهم وحماة اللغة العربية، حتى طلعت علينا (الموسوعة الموجزة) التى انشأها فكرك وعلمك ووعيك وغيرتك على الثقافة العربية المثلى».

والمعلمة هى الام الكبرى التى تضم كل هؤلاء الانجال، كنت

وأنا مدير للموسوعة العربية فى وزارة الثقافة بدمشق، أعلل النفس بأن موسوعتنا ستظهر عما قريب ولو فى عهد غير عهدى...

فالى الامام يا عزيزى ويا صديقى القديم فى عملك الحميد. ولكم أطرب حين تعاودنى الذكرى فأرى تلاميذى اصبحوا اساتذة مثلى.. وكان تاريخ هذه الرسالة ١٩٧٢/١/٣. وكنت قبل ذلك معجبا بالمحاسنى الشاعر والاديب من خلال مؤلفاته وأشعاره التى كان ينشرها فى المجلات وخاصة فى مجلة الاديب.

لقد كنت أحس وألمس خلال مراسلاته النثرية والشعرية لباقة وذوقا ودماثة اخلاق ومحبة لاخوانه الادباء.

وكان المحاسنى يبدع فى النثر والشعر وفى الدراسات الادبية فكانت قصائده التى ظهرت بين حين وآخر... تتميز بالطابع الوصفى والوجدانى وفى جزالة عرف بها.

وكان له باع فى الملحمة ورأى خاص بها فهو يقول: «عندى أن كل شعر طال أو قصر، وقد وصفت فيه المعارك، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلاد أو الجهاد، هو من شعر الملاحم».. كما قال أيضا: «انى أعد الشعر الجاهلى الذى قاله اصحابه فى أيام العرب «ملحمة كبرى» ولكنها مقطعة الاوصال وقد اشترك فى وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء، وكفى بحرب «داحس والغبراء» أن تكون ملحمة كبرى اذا دامت اربعين عاما بين عبس وذبيان».

وضرب المحاسنى مثلا من الشعر الاندلسى حين قال: «لقد حاول الاندلسيون صنع الملحمة على طريقة الشاعر هوميروس صاحب الالياذة فكانت تجاربهم هذه الاولى فى شعر الملحمة تحتوى تاريخ العرب فى الاندلس وحوادث ملوكهم وتنازعهم مع الاسبان، وقد سجلوا فيها فتوحهم البلدان الاسبانية، والغريب أن بعض هذه القصائد المطولة كان يبدأ بالكلام على خلق العالم. ثم يتدرج فى الخليقة حتى يصل الى العصر الاندلسى الذى فيه الملك المبجل، اذ تنتهى القصيدة الى عصر الشاعر الذى نظمها، ولم يسمها أحد منهم ملحمة» وانما كانت عندهم أراجيز مطولة، بذلك ركبوا الارجوزة فخلصتهم من القصيدة ذات الراوى الواحد، اذ كانت اراجيزهم الملحمية كل بيت بقافية تخالف الثانية» .. ولقد كان المحاسنى الشاعر يتمتع بصفات الباحث المدقق.. وفى ذلك قال الدكتور عبد الوهاب عزام فى تقديمه لرسالته «شعر الحرب» : «وقد عكف فيها عكوف الباحث المخلص المتثبت، الذى لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن الى الدعة، ولا ينوء به النصب والدأب».

ويشير الاستاذ محمد عبد الغنى حسن الى هذه النزعة بقوله: «وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف، يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يتسر الاحكام، أو يتابع فى الآراء على غير تحقيق، ولكنه يقرأ، ويحقق ويوازن، ويزن، ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

وظل الادب وكتابة المقال ونظم الشعر وتأليف الكتب ومتابعة الحركات الفكرية شغله الشاغل.

كان النبوغ متأصلا فى نفس ادبينا اذ يقول فى ذلك الاستاذ حسنى كنعان «عرفت هذا النيزك الادبى اللامع طالبا بمدرسة تطبيقات عنبر وتجهيزه ـ منذ أوائل عام ١٩٢١ وكان فى المدرستين من أوفى وأنبل الطلاب، صان لسانه عن الاذى ولم يبسط لهم يدا بسوء ولذا أحده أصدقاؤه واساتذته، وكنت أسمع منه دائماً جملة يرددها «سأنبغ ذات يوم» ساق هذه الكلمة على لسانه ثقته بنفسه ورجاؤه بمستقبله، وكان أصدقاؤه الخلص واساتذته كالشيخ محمد الداوودى والأستاذ سليم الجندى والشيخ عبد القادر المبارك يسددون خطاه، وينيرون له سبيل الوصول الى غايته السامقة، فولدت هذه الحوافز بنفسه الهمة والنشاط، ولذا كان دؤوبا على المطالعة والكتابة شعرا ونثرا.. وفى جولة تفتيشية اجراها وزير المعارف يومئذ العلامة محمد كرد على، على المدارس فى أيامه قدم له الاستاذ سليم الجندى طرائف من عمل طلاب البكالوريا المجددين فرأى فيها ما أدهشه، وتوسم خيرا بهذه البراعم المتفتحة وتلمس آثار النبوغ فأزمع على اقامة حفلة لهم بالمجمع وقتئذ تقديرا وتكريما، منهم فقيدنا الدكتور زكى المحاسنى والفقيد الاستاذ الشاعر أنور العطار والدكتور جميل سلطان والاستاذ عبد الكريم الكرمى الملقب (بأبى سلمى) وقد هيا العلامة محمد كرد على الحفلة ودعا لها نخبة من أعيان دمشق وادبائها، ثم جمعهم وقدمهم الى الجمهور واحدا إثر الآخر،

وذكر كلمة موجزة عن مآثر كل منهم وتاريخ أسرهم، وطلب من كل منهم نموذجا صغيرا عن شعره فكان لهذه اللفتة الكريمة النشاط والتشجيع والمثابرة على العمل. ولقد حدثنا الاستاذ سامى الكيالى عن بدايات الدكتور المحاسنى فقال: «وقد عرفته منذ اصدارى مجلة «الحديث» عام١٩٢٧ .. فما هى الا سنوات حتى أخذ يوافيها بشعره ومقالاته، واذا هو صورة حية من الاديب النابغ الذى جعل «الادب» اجمل هواياته بل جعله شغله الشاغل، فلا تمر دقيقة من وقته دون الافادة من كتب الادب ومما يكتبه اعلام الفكر، يتابع الحركة الادبية المتطورة باهتمام وقد عاش زهرة شبابه ومطلع كهولته يدرس ويدرس وما يزال يدرس ويؤلف ، واصبحنا لا نفتح مجلة الا ونقرأ له مقالة أو قصيدة هما عصارة الفكر الحر والموهبة الاصيلة، وصورة مشرقة من نفسه المنطوية على صور شتى من حياتنا الفكرية يغرف منها ويرسلها نفحات عبقة..

وقد أشار المحاسنى الشاعر الى صورة من مراحل حياته الادبية التى مر بها هو وانداده فى كتابه عن أحمد أمين فقال: «.. فكنا على الحداثة ومستهل الشباب نتصل بأدباء بلادنا وشعرائها الغابرين والمعاصرين، ثم نتلفت الى حركات التجديد والتطور التى كانت تتوالى على ضفاف النيل عنيفة صاخبة أو هادئة متزنة، وكان من دأب صحافتنا العربية السورية أن تنقل للقراء والشباب المثقف والمتعلم صور هذه الحركات وصدى ما تضمنت من أفكار وآراء. فكان اسم الدكتور طه الحسين يدوى فى المسامع والمحافل لما أثارت بحوثه

الثورية فى الادب، وفى الحياة السياسية والقومية، ولم تمض الاعوام طوالا حتى طلع اسم أحمد أمين العالم العربى والاسلامى بجديد مرتقب فى دراسة الحياة العقلية خلال العصور الاولى، فشاقنى تتبعى لهذين العلمين الخفاقين أن أقف على نتاج كل منهم، وأنا فى بلدى وجامعتى أتدارس مع أترابى مقالات كانت تنشر لطه حسين وأحمد أمين فنتبين فيها ملامح وشخصية كل منهما بمقدار ما أوتينا من وعى وثقافة».

انه يذكر هذه الفترة من أيام الحداثة والشباب وما تركته مصر وما تركه عمالقة أدبائها من أثر فى نفسه وفى نفس انداده.

ومن قصيدة للمحاسنى يرحمه الله فى مهرجان ابى تمام فى دمشق:

لام الأحبة عذال بما هاموا
فما شفاهم من التبريح تلوام
ضلوا السبيل الى وجد فنغصهم
وطرحتهم به شكوى وآلام
دع الهوى بغية الفانين انهم
راموا الجسوم فما عزوا ولا داموا
واطلبه فى الروح صفوا باقيا، فله
من العروبة عشاق وهيام
حب لعمرك ما هانت نوازعه
ولا رمته تباريح واوهام

وقال الشاعر فى قصيدة أخرى بعنوان «دنيانا» :

سعدت لأنى جئت فى هذه الدنى
كأنى عرفت العمر من قبل أن أحيا
ألم أك فى طى التراب غذاءه
فأصلى فى نسل تقادم فى الهلكى
سلكت سبيلى فى الهواء مرقرقاً
وفى عاصف منه تعسف واستعلى
وفى الماء فى أوج الغيرم وربما
بمستنقع أوردت كدرته الحرى
فما انعكس الخيام فى برج خاطرى
يوسوس فى فكرى بحيرته النشوى
ولا كان لى عند المعرى وسيلة
لألبس فيها الزهد لبسته الكبرى

وفيما يلى يحدثنا الدكتور بديع حقى عن المربى الدكتور زكى المحاسنى: «كنت قد استشرفت السادسة عشر من العمر، حين عرفته، لاول مرة، معلما لى فى الصف الثامن من مكتب تجهيز عنبر.

وامتدت نظرتى، شعاعا مستطلعا حزمة الاشعة المتشرفة الشاخصة من عيون رفاقى فصافحت، لما دخل حجرة الدراسة قامته المشيقة، المنتصبة وكان ربعة، الى الطول ورأيت اليه يمضى فى حيوية الشباب وعنفوانه، الى كرسى قابع خلف المنضدة.

وكنا وقوفا فأشار بيده اشارة تحملنا على الجلوس، وتبادلنا همسات مقتضبة يسيرة: «ان معلم اللغة العربية هذا، هو فيما يبدو: معلم رقيق الحاشية لطيف، بذلك تشى قسمات وجهه الطيب السمح..».

وهنا يصف الدكتور صفاء خلوصى اديبنا الراحل وهو فى حالة المرض فيقول: «ما أكثر رسائلك الى وأنت مريض، مع ذلك فما كنت تشتكى ولا تبعث بأنه ولا آهة، حتى خيل الى أن ما ينسب اليك من مرض وعكة عابرة بولغ فيها، الى أن جاءنى النعى».

وكان المحاسنى الذى فقدته دمشق والعالم العربى ينظم الشعر حتى الساعات الاخيرة من عمره ومن تتبع هذا الشعر وجده متفاوت الالوان غزير الانتاج صادق الوجدان، ومن عجب أن هذا الشاعر الموهوب كان على انصرافه للشعر متعدد الجوانب فى أدبه منبسط الشهرة ذائع الصيت.

ولقد جاء نعى الفقيد الغالى فاجعة ألمت باخوانه الذين يجلونه[1] ويكرمونه ويحبونه.. وهذه الابيات للاستاذ رشاد على أديب فى رثائه.

قد يبعث الاسى والشجونا
حين يزجى الى النفوس المنونا

(١): لمعرفة تفاصيل ترجمة المحاسنى وتآليفه يرجى الرجوع الى مقالنا فى العدد الصادر فى مايو ١٩٧٢ بعنوان «الدكتور زكى المحاسنى فقيد الادب» فى مجلة الاديب.

سنة الله منذ خلق البرايا
ودبيب الحياة فى العالمينا
انها حكمة يحاربها الـنـا
س ويخشون أمرها هائبينا
ويعانون فى المصاب اكتئابا
ويذوبون حرقة جازعينا
لا مردّ لحكم ربى تعالى
انه الله أعدل الحاكمينا
فاذا شاء أن ينفذ أمرا
وقضاء يقول كن فيكونا
كل من فى السماء والارض من خل
ـق لابرام حكمه خاضعونا
فليقل كل من يصاب برزء
اننا فى بلائنا طائعونا
حسبنا الله ربنا واليه
كـل حين وساعة راجعـونـا
انـنـا صابـرون والـلـه يـجـزى
بثواب من فضله الصابرينا[1]

ولا بد لى أخيرا أن اتحدث عن الدكتور المحاسني عن قرب فلقد زرته فى داره بدمشق قبل وفاته بشهرين وكنت أحببته من خلال

(١): للحصول على الرثاء الكامل يرجى الرجوع الى العدد الصادر فى يوليو ١٩٧٢ من مجلة الاديب.

دراساتى لادبه الغزير الجم فى الصحف والاذاعة والمؤلفات التى زادات على العشرين، فاستقبلنى استقبالا حافلا مع قرينته السيدة وداد سكاكينى الادبية المثالية الفاضلة، رغم أن ذلك اللقاء كان أول لقاء... وآخر لقاء أيضا.. ودامت زيارتى له أكثر من ساعة حدثنى فيها الكثير عن الادب.. وعن اخوانه فى الادب... وكان خلال حديثه مركز المعلومات دقيق العبارة عميق الفكرة حتى انه حدثنى عن عبد الحميد الكاتب كثيرا وكان خلال حديثه كأنه يقرأ من كتاب مفتوح امامه.. قوى النبرة.. فصيح العبارة والبيان.. وأذكر أنه قال لى «وما من ريب فى أن عبد الحميد أفضل كاتب ظهر فى العصر الاموى فقد كان بليغا وقد ضربت ببلاغته الامثال حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد.. الى أن قال: ويقول اليعقوبى أن عبد الحميد تخلف بمصر واستتر حتى دل عليه صالح بن على وزاد غيره انه لما اتهم اختبأ فى كنيسة فى بوصير من أرض مصر.. وقال آخرون أنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمر عليه ـ وكان صديقه ـ وفاجأهما الطالب وهما فى البيت، فقال الذين دخلوا أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما، أنا، خوفا على صاحبه وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا: ترفقوا بنا، فان لكل منا علامات، فوكلوا بعضكم وليمض البعض الآخر الى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذا عبد الحميد».

واذا أردت أن أقول كلمتى الاخيرة فى هذا المجال.. فلا بد أن

أقول كلمة الحق.. كما عرفت الدكتور زكى المحاسنى.. فهو أديب أصيل وباحث متعمق يدرس الموضوع من جميع جوانبه.. وشاعر مرهف الحس.. كبير القلب.. صافى النفس.. وبكلمة.. فالشاعر المحاسنى موسوعى الثقافة.. وقد كتب عنه الكثير.. وسيكتب عنه الكثير.. ولن يوفى حقه، ومتى ظهر ديوان المحاسنى مطبوعا سيعجب القراء لما أوتى هذا الشاعر المطبوع من فيض القريحة وانطلاق الشعور والخيال.

***